العبور

قصة بقلم الدكتور حسين ادريس

سأتمدّد قليلا . حتى ولو عشر دقائق . ريثما يصلون لنقوم معا بالعبور . ان بي حاجة الى بعض الراحة . سأغمض عينيّ من غير أن أنام . دقائق معدودة . دقيقتين .

وتمدّد الى جانب الصخرة . وتمدّد الكلاشنكوف الى جانبه ، وتلمّست أصابعه حديده : لا يزال فيه اثر من حرارة . أطلق اليوم كثيرا من رصاصه . وربما كان أمامه بعد عمل كثير ، بالرغم من تناقص الذخيرة . ستظل على كل حال ذلك الصديق الذي لا يخون .

وأغمض عينيه باطمئنان لم يحسّ بهَ منذ ساعات . وطفرت فجأة الى مخيلته صورة الوجه الصغير النائم . كان قد وعده ، صامتا ، بأن يعود ليراه في اليوم التالي . ووعدها هي ايضا . وها قد مرّت أربعة ايام . ستكون قد قضت ثلاث ليال بيضاء . وسيهدّ الارق كيانها كله، كما حدث في أيلول . لكنها ستكون الآن اكثر تحمّلا . كان هذا ما وعدته به . اكراما لوليد . وحين قال لها ان مجزرة شبيهة بتلك قد بدأت آنذاك ، ادرك انها تحاول جاهدة ألاّ تبكي أمامه . وقال ليطمئنها انهم الآن سيكونون اكثر صمودا ، فاكتفت بالقول بان اولئك سيكونون اكثر شراسة . وفكر بالذين يدعمون المنظمة من الخارج . وهمّ بأن يقول انهم سيتدخّلون ، ولكنه تمثلهم مجتمعين حول الموائد وفي الفنادق يتكلمون ويتكلمون . فآثر الصمت. نعم، سيتدخّلون ، ولكن بعد وقوع المجزرة ، وسيرسلون الرسل والبعثات ، وسيطلقون التصريحات والاتهامات ،بل سيلجأون حتى الى التخوين . ثم ماذا ؟ يأتي وسيط من هنا او من هناك ، وتستمر المفاوضات اياما ، والمجزرة دائرة ، ثم يعلن الوصول الى اتفاق جديد لن يكون في نهاية المطاف الاّ هدنة قصيرة يتمّ بعدها الانقضاض على ما بقي من رجالنا في مُا بقي من أرضنا . ومع ذلك يا سلمى .. وسمعها تقول معه ، كما لو انها استعارت شفتيه :انه قدَرنا . نعم يا زوجتي المسكينة التي تجاهد حتى لا تنفجر بالبكاء ، نعم يا ولدي النائم الذي يؤرّقه غياب ابيه وانفجارات المدافع وطلقات الرشاشات ، نعم ايها الرفاق الباقون المقاتلون من أجل حقكم في الحياة ، المقتتلون حين تعجزون عن مقاتلة أعدائكم ، نعم ايها الاخوة المتناثرون في أربعة اركان المعمورة ، يبحث بعضكم عن لقمة شريفة يمسك بها الرمق على افراد اسرة تتشبث بالبقاء حيث نزحت لتكون أقرب الى الارض التي فقدت ، وينسى البعض الآخر أن يعود او يتناسى ، فيسعى وراء كل ما يعمق هذا النسيان ويقطع تلك الصلة ، نعم يا ضمير العالم المدخول ، نعم يا قوانين الامم المتحدة المومس ، نعم ... يا قدرنا الظالم الذي نتمصّص ظلمه كما نلعق جراحنا ..

وشعر بأصابعه تتحسس الجرح في ربلة ساقه ، فعجب ان يكون قد نسيه طوال هذه المدة ، ولكنه عزّى نفسه بأنه جرح طفيف ، وبأن الشظية التي احدثته كانت صغيرة ، فلم تكن به حاجة الى تضميده . ولكن ضيقا مفاجئا اخذ بخناقه : أتراهم ، الرفاق ، قد أوصلوا ربحي الى مكان آمن يمكن فيه معالجة الجرح العميق الذي اصيب به رأسه من تلك القذيفة المروّعة ؟ وتذكر بسمة ربحي اذ كان سعيد وفهمي يربطان رأسه : بدأت البسمة افترارا يريد به التعبير عن الاستخفاف بالاصابة والاستهانة بالوجع،وما لبثتان تحوّلت الى كزازة في زوايا الشفتين وتقبض متشنج في قسمات الوجه كلها لا يمكن ان يعبر عن غير عذاب بطولي يسعى الى تجاوز ذاته . حنانيك ايها الرفيق : أترى يقدّر لي ثانية ان اطالع على وجهك القاسي بسمة بلا قناع ؟

وتناهى الى سمعه هدير طائرة ، فاستقام قاعدا ويده على سلاحه . ثم قدّر انها اكثر من طائرة ، فقال ان الليل لن يسمح له برؤيتها . ها هي اذن تعود الى

مطاردتنا . انهم مصرّون هذه المرة على قتلنا في هـذه الارض ، او اخراجنا منها . هو ذا الخيار اذن ، ان نقبل ان نقتل هنا ، على يد « الاخوة » ، او ان نهرب الى هناك ، الى الاعداء . ليس من خيار ثالـث .

وتعالى هدير الطائرات . سيعودون الى احراق كل شيء : الشجر والصخر والتراب . سنفقد رفاقا آخرين . ولا بدّ أن يأتي دوري . ولكني لا اريـد ان أموت هـذه الميتة البليدة . هنا على هذه الارض ، لم أقاتل طوال تلك السنوات الخمس ليقتلوني هنا ضحية للغدر والخيانة . لا بدّ أن أقتل قبل ذلك عدوا آخر ، من هنا او من هناك ، من جنود السلطـة او من جنود المحتل .

وأيقن انه سيخوض الآن معركة جديدة ، ربما كانت معركته الاخيرة ، فنهض قويا متصلبا على ساقيه ، ولـم يكـد يخطو خطوته الاولى حتى انبثق في السماء نور باهر تغذّيه بضعـة مشاعل كأنهـا الثريات . انهم يضيئون الليل ليكتشفوا مواقعنا فتسهل مطاردتنا . وابتدأت الانفجارات ، وشاهد طرف الغابة يحترق ، وسمع صوت مدفع مضاد للطائرات فقال انه مدفع فوزي الذي أسقط امس احدى الطائرات . وأحس مرة اخرى بعجز الكلاشنكوف ، فشعر بأنه يثقل بين يديه . ولكنه ما لبث ان رفعه وهو يربت على حديده كأنه يستغفره من ان يكون قد نسي انه قتل بـه ثلاثة وجرح عددا اكبر دون ريب .

وتوقف فجأة وهو ينظر الى شبحين ينحدران باتجاهه من الكثيب المقابل ، فوضع سبابته على زناد السلاح بحركة شبه غريزية ثم قال : لا بد ان يكونا من الرفاق . وقبل ان يتمكـن من تقرير الموقف الذي يتخذه ، انقضّت طائـرة مجنونة وهي تطلق نيران رشاشاتها ، فانبطح على الارض وهو يلمح الشبحين يفترقان مذعورين كل في اتجاه ، ثم سمع صرخة .

زحف ، وهو منبطح بعد ، باتجاه دغل يكتنف بعض الاشجار : ستعود الطائرات من غير شك ، فلا بد من التزام السكون حتى تذهب . وقال انه سيزحف بعد ذلك باتجاه الرفيقين اللذين سقط أحدهما وهو يصرخ .

وسمع الطائرات تعـود وهي تطلق نيرانها على غير هدى ، في كل اتجاه . وظلّ يحدّق في المشاعل المعلقة بالسماء . ستنطفىء يوما مشاعلك ايها الطاغية الصغير وسنلقمك التراب ممزوجا بدماء رفاقنا الذيـن قتلتهـم سلطتك ، وسوف ...

وقطع على نفسه الحديث : تلك شتائم لا تجدينا الآن . انها نتاج الانفعال . فلنفكر بما ينبغي ان نفعل .

وانغلق على ذاته لا يحدّثها ولا يستمع اليها . وظل مرهفا سمعه للهديـر وهو يبتعد ، محدّقا في المشاعـل وهي تخبو رويدا رويدا .

* * *

اتجه في ظلام الليل العائد الى الكثيب المقابل . كان يتساءل عن المكان الذي سقط فيه ذلك الرجل ، وعـن الموقع الذي اتجه اليه الرجل الآخر . وسمع فجأة صوتا متوترا يقـول :

ـ قف . مـن أنت ؟

قال بهدوء :

ـ رأيت رفيقك يسقط من رش الطائرات

قال الآخر :

ـ انت منا اذن ؟

قال وهو يمدّ يده :

ـ نعم . كنت أنوي العبور .

سأله الآخر ، وهو يصافحه :

ـ انت ايضا ؟ نحن كذلك كنا نتجه الى الضفـة ، ولكـن ...

واشار الى رفيقه المنطرح على ظهره ، مضرّج الوجه والصـدر .

ثم رآه ينحني قليلا وهو يقول له :

ـ يجب ان ندفنه قبل ان نمضي . لن يعرف أحد من رفاقنـا بمقتلـه .

وانحنى بدوره فوق القتيل . ومـدّ يده فلمس جبينه : حار دمه ما يزال .

واخذا يحفران له حفرة صغيرة . وظلا دقائق لا يتكلمان . ثم سأل :

ـ قُتل على الفور ؟

أجاب الآخر دون ان يرفع اليه بصره :

ـ تقريبا . بقي ثلاث دقائق ، لا اكثر .

قال :

ـ سمعت صرخته .

وصمت لحظة قبل ان يسألـه :

ـ هل استطاع ان يقول شيئا ؟

قال الآخر :

ـ عبارة واحدة : « اعبر النهر ، يا اسماعيل ، كمـا اتفقنـا » .

قال ، بعد لحظة صمت :

ـ طبعا . الافضل ان نسقط أسرى في يد الاعداء ، على ان نُقتل بيد « الاخوة » . هكذا قررنا نحن ايضا . واول امس وامس ، عبر زهاء اربعين منا .

قال الآخر :

ـ اما نحن فقد قتل رجال السلطة تسعة منا واسروا العشرات . وامس رأيت بعض الرفاق يعبرون باسلحتهم .

وتوقف قليلا عن الحفر وقد أحسّ ببعض التعب .

قال الآخـر :

ـ أظنّ ان هذا يكفي . ساعدني يا أخ .. لم تقل لـي اسمـــك .

قال :

ـ حلمي

ـ ساعدني يا اخ حلمي . اما انا فاسمي ..

قال :

ـ عرفته يا اخ اسماعيل .

ورآه يتقدم من الجسد المتمدّد فيحمله من رجليه وساقيه ، فتقدم وحمله من رأسه .

وأحسّ فجأة برعشة في كيانه . كان الحمل خفيفا بين يديه . وحدّق في وجه القتيل ، فلم يمنعه الظلام من ان يقدر ان سنه لا تتجاوز العشرين . ولم يفهم كيف داخله ذلك الشعور : بانه انما كان يحمل ابنه وليد .

وحين وضعاه في الحفرة ، جثا على ركبتيه وادنى شفتيه من جبينه ، ثم قبّل جرحه الدامي .

وفيما كان ينهض ، سمع نسيج الآخر ، فتقدم منه وعانقه وهو يربت على ظهره ، ثم انحنيا معا يهيلان التراب على الحفرة الصغيرة .

* * *

قال له الآخر أن عليهمـا أن يحثا الخطى حتى يدركا الضفة قبل انبلاج الفجر ، فأومأ برأسه من غير ان يتكلم ، واندفع معه في مشية عاجلة . وسمعا انفجارات بعيـدة واطلاق رشاشات ، فقال الآخر :

ـ يطاردون مجموعات اخرى . سيلحق بنا آخرون .

فلم يعلق بكلمة ، وظل يمشي وهو يصغي الى وقع خطاهمـا .

وطفق الآخر يتكلم . تكلم عن رفاقه الذين قتلوا ، وعن الذين عبروا ، وعن الذين دخلوا الاراضي السورية والاراضي اللبنانية . وتكلم عن أمه المقيمة مع ابيه واختيه في القاهرة ، وتكلم عن طفولته ودراسته ، ثم توقف فجأة يسأله :

ـ المعذرة يا حلمي . أنقلت عليك بالكلام .

قال :

ـ لا بأس : استمعت اليك يا اسماعيل بكل اهتمام .

قال الآخر :

ـ اردت ان ننساه .

والتفت الى المنطقة التي كانا قد خلّفاها . ثم سأله :

ـ وانت ، الا تقول شيئا ؟

قال :

ـ لا . اعذرني يا اخ اسماعيل . ليس لديّ ماأقول .

وصمت الآخر ، فحزن لصمته ودّ لو يتابع حديثه ، وقال لنفسه ان رفيقه قد صمت احتراما لصمته هو .

وظلا يمشيان بلا كلام حتى بلغا الضفة .

قال :

ـ يجب ان نفترق ، وان يعبر كل منا وحده .

ومدّ يده يصافح الآخر بقوة :

ـ مع السلامة يا اخ اسماعيل .

قال الاخر بصوت ضعيف :

ـ مع السلامة يا أخ حلمي .

وانتظر حتى رأى الآخر يهبط الى الماء .

ثم غطس بدوره في النهـر .

ها أنت تخوضه مرة اخرى . هذه هي المرة الرابعة . ولكنك اليـوم تعبره بكل طمانينة وامان . كنت في المرات السابقة تخوضه متسللا الى تراب وطنك ، يساعدك الاخوة من خلف ليلهوا عنك العدو او ليحموك منه . اما الآن ، فهم يدفعونك ويطاردونك حتى تستسلم للعدو ، ربما باتفاق مع العدو . كانت تلك اخطر رحلة تقوم بها ، ولكنهـا كانت اشرف رحلـة : مهمة عظيمة يعهد فيها اليك . وكنـت تستعذب ذلك الاحساس بالخطر ، لانك كنت واثقـا من نبل ما تسعى اليه ، وكنت على يقين بانك ستعود الـى رفاقك بعد ان تؤدي مهمتك ، لتنتظر امرا آخر بالعبور . اما الآن ، فانت ذاهب الى حيث لا تعود ، الى مـا اصبح منطقة امان .. صحيح انك هارب من القتل ، ولكنـك ذاهب الى الاسر والاستسلام .

ولكن ألا يحق لي ان ادافع عن حياتي واحفظها من القتل ؟ ليس من حقك ان تستسلم . اذن لم يعد امامي الا ان أغرق نفسي في هذا النهر . ليس مـن حقك حتى ان تنتحر . ان حياتك ليست لك .

واحسّ ان يديه وساقيه تتباطأ في السباحة .

ثم رأى عن بعد اعلاما بيضاء مرفوعة على فوهـات البنـادق .

وقال في نفسه فجأة : المعذرة ايها الرفاق . سأخونكم هـذه المـرة .

ثم استدرك قائلا : بـل الآن فقط لا أخونكم . ان قدري هو ان اقاتل ابدا : حتى وحيدا .

ثم ذكر ابنه فقال له : اكبر بسرعة يا وليد .

واستدار على نفسه ، وعاد الى ارض الاخوة الاعداء .

سهيل ادريس

صدر حديثا

من فلسطين ريشتي

للشاعـــر ابي سلمـــى

« انت الجذع الذي نبتت عليه اغانينا .. »

محمود درويش

منشورات دار الآداب

ثمن النسخة ٢٠٠ ق . ل